مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 10- العدد 4 (ديسمبر) 1442هـ/2020م
ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

الطاعون الكبير بالمغرب (1798- 1800م)- دراسة ديمغرافية

The Great Plague in Morocco (1798- 1800 AD)- Demographic Study

اسم ولقب المؤلف المرسل: إكرام شقرون- Chakroun Ikram
الدرجة والعنوان المهني: أستاذة باحثة- أستاذة مكونة بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين لجهة الشرق، وجدة- (المغرب) /البريد الإلكتروني: ichakroun@hotmail.com

صص272-284

تاريخ استقبال المقال: 2020/07/08 تاريخ المراجعة: 2020/08/30 تاريخ القبول: 2020/09/28

الملخص: يتميز موضوع الأوبئة بتعدد جوانبه وتشعب امتداداته، باعتبارها من التحديات والإكراهات الملازمة للإنسان طوال مساره التاريخي؛ فقد شهد المغرب على مرّ التاريخ العديد من الأمراض والأوبئة الفتاكة التي كان بعضها محصورا في نطاق جغرافي معين، بينما اجتاح بعضها الأخر البلاد بأسرها؛ فتداخلت عدة عوامل في تفسيرها، كما اختلفت طرق التعامل معها والتصدي لها باختلاف الحقب التاريخية والإمكانيات المتاحة؛ فتباينت الآثار الديمغرافية والاقتصادية والسياسية التي خلفتها عبر العصور، ولعلّ من أخطر الأوبئة التي تعرض لها المغرب خلال القرن 19م، وكانت تتكرر بشكل دوري، نذكر وباء الطاعون الذي هدّد حياة المغاربة واستقرارهم؛ فكان من أشدّ البلايا وقعا على المجتمع المغربي.

لذا سأحاول من خلال هذه الدراسة الوقوف على أحد أهم تلك الأوبئة التي عرفها المغرب في نهاية القرن 18م ومطلع القرن 19م، ألا وهو الطاعون الكبير (1798-1800م) الذي اجتاح البلاد بأسرها، بعد فترة استراحة امتدت قرابة نصف قرن، وذلك من خلال البحث في طبيعته، وتحديد مصدره، والأسباب التي ساهمت في انتشاره سواء كانت طبيعية أو بشرية، وكذا رصد النتائج والآثار الديمغرافية التي خلفها، من خلال المقارنة بين الروايات الأجنبية والمغربية التي تتفق على أن هذا الوباء الجارف تميز بقوته التدميرية؛ فكان له تأثير واضح على البنية السكانية، باعتبار أنه شمل مختلف الفئات الاجتماعية، مما ساهم في تكريس الركود الديمغرافي، وفسح المجال للتغلغل الأوروبي.

الكلمات المفتاحية: الطاعون؛ الكبير؛ المغرب؛ دراسة؛ ديمغرافية؛ تاريخ؛ الأوبئة؛ مطلع القرن 19م.

EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636 ردمد
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

Abstract: *The subject of epidemics is characterized by its numerous aspects and complexity, as it is one of the challenges and constraints inherent in man over his historical course.*

Throughout history, Morocco has witnessed many deadly diseases and epidemics, some of which were confined to a certain geographical range, while others have invaded the entire country. Several factors interfered in their interpretation, and the ways in which they were dealt with it and confronting it differed according to historical periods and available possibilities, hence, the variety of the demographic, economic and political effects they have left over the ages. Perhaps one of the most serious epidemics that Morocco subjected during the 19th century, which was repeated periodically, is the plague, that threatened the lives and stability of Moroccans, which was one of the most severe scourges on Moroccan society.

Therefore, I will try through this study, to cast light on one of the most important epidemics that Morocco experienced at the end of the 18th and early 19th centuries, namely the Great Plague of 1798-1800, which swept the whole country, after a break of nearly half a century, by researching its nature, identifying its source, and the causes that contributed to its spread, whether they were natural or human, as well as monitoring the results and demographic effects it has left behind, through comparing foreign and Moroccan narratives that agree on the destructive power of this particular epidemic. Which had a clear impact on the population structure, as it included various social groups, contributing to the perpetuation of the demographic recession and allowed for European penetration.

Keywords: The Great; The Plague; Epidemics; Morocco; Demography; Study; History; early 19th century AD.

مقدمة: تعتبر الأوبئة عاملا حاسما لفهم التاريخ، واستيعاب مختلف التحولات الطارئة في حياة الأمم والشعوب، باعتبار أنها تمس كل زوايا المجتمع الديمغرافية والاقتصادية وحتى السياسية.

وللمغرب تاريخ طويل من الصراع ضد الأوبئة، إذ كان بحكم موقعه الاستراتيجي المطل على واجهتين بحريتين، وامتداده البري جنوبا وشرقا في اتجاه إفريقيا، معرضا لانتقالها عبر وسائل مختلفة، كسفن نقل البضائع والأشخاص، أو عن طريق القوافل التجارية الآتية من الجنوب والشرق. ولقد تلاحقت على المغرب خلال القرن 19م مجموعة من الأوبئة التي كانت تتكرر بشكل دوري، لعلّ أبرزها: طاعون 1798- 1800م، الذي يعد الوباء الأكثر فتكا بالمغاربة، حيث تسبب في مقتل الكثير منهم، ممّا أدّى إلى انهيار ديمغرافي كبير، فكانت له عواقب وخيمة على المجتمع المغربي.

1- **التعريف بالطاعون الكبير**(1798- 1800م):

أ- تاريخه: لقد داهم الطاعون الكبير المغرب بعد فترة استراحة امتدت قرابة نصف قرن. ونلاحظ أن هناك تناقضا في تحديد تاريخ هذا الوباء، حيث نجد كاتب السلطان المؤرخ أبو القاسم الزياني يؤرخ له بسنة 1212هـ، فيقول في هذا الصدد: " وفي هذا العام دخل الوباء للمغرب، وعمّ حواضره وبواديه"[1]. ويتبعه في ذلك كل من الناصري[2]، والجعيدي[3]، والكنسوسي[4]. لكن بالمقابل نجد الضعيف يؤرخ لهذا الوباء بسنة 1213هـ، حيث يشير إلى أنه في 10 رمضان 1213هـ/ 15 فبراير 1799م: "كان الوباء بفاس الجديد وقصبة اشراكة، وفي أولاد جامع، وكثر الموت في الناس"[5]، وهو ما تؤكده كذلك المصادر الأجنبية التي جعلت سنة 1799م بداية للوباء. لكن يبقى الإشكال المطروح هو أنه إذا كان عدد الضحايا مرتفعا بفاس خلال فبراير 1799م حسب الضعيف، فهذا يعني أن الوباء ظهر في تاريخ سابق، باعتبار أن وباء الطاعون يكون في البداية خفيفا، ثم يأخذ في التزايد تدريجيا حيث يرتفع عدد ضحاياه، ولعل هذا ما نجد جوابه في تقييد لعبد السلام الفشتالي، جاء فيه: "الحمد لله، فشى الطاعون بالمغرب وأول ما ظهر بقبيلة لوداية حتى فنى من شاء الله بمحلتهم النازلين بصواغة ونواحيها، ودخل القصبة وفاس الجديد منتهى جمادى الثانية عام ثلاث عشر ومائتين وألف (دجنبر 1798م) حتى تحيرت الناس وفتنوا الأحياء من كثرة الموتى.. ثم دخل فاس أواخر شعبان من العام المذكور (فبراير 1799م) حتى ازداد أمره واشتد بأول شوال (8مارس1799م)، حتى صاروا يدفنون ما يزيد على ألف كل يوم"[6].

وبذلك يتضح من خلال هذه الرواية، أن وباء الطاعون ظهر بفاس الجديد في أواخر سنة 1798م، لينتشر بعد ذلك بفاس البالي في فبراير 1799م، بعدما كان قد ظهر بالجهة الشرقية والريف الشرقي.

ب- مصدره ومراحل انتشاره: لقد ظل الاختلاف قائما بين المصادر سواء المغربية أو الأجنبية فيما يتعلق بمصدر هذا الوباء، فبينما يذهب الدكتور رينو (L.Raynaud) إلى أن هذا الطاعون تسرب إلى المغرب عبر طنجة، عن طريق الحجاج المغاربة وذلك في صيف 1799م، حيث استمر سنتين، مخلفا خسائر فادحة[7]. ويتبعه في ذلك كل من طوماسي (R.Thomassy)[8] وقودار (Godard)[9]، نجد في المقابل رونو (H.P.J.Renaud) يثبت من خلال التحريات التي قام بها أن هذا الطاعون تسرب إلى المغرب من الجزائر عبر الطريق البري التجاري (وجدة- تازة- فاس)، لأنه كان متفشيا في مدينة تلمسان الحدودية منذ 1798م؛

فنفى بذلك مسؤولية الحجاج في جلبه، باعتبار أن طنجة بوابة المغرب البحرية لم تصب بهذا الوباء إلا في شهر نوفمبر 1799م، بعد إصابة مختلف الجهات، كما هو موضح في الجدول التالي[10]:

جدول رقم (1): مراحل انتشار الطاعون الكبير (1798- 1800م) بالمغرب.

التاريخ	المجال المطعون
إلى غاية فبراير 1799م	المغرب الشرقي ونواحي مليلية وقلعية وتازة وفاس الجديد
أبريل- ماي	فاس البالي- الرباط (حوض سبو)
يونيو- يوليوز	الريف- مكناس- سلا- الشاوية- دكالة –عبدة- أزمور- مراكش
غشت- شتنبر	مازغان (الجديدة)- أسفي- موكادور(الصويرة)- تارودانت وسوس
نوفمبر- دجنبر	تطوان- طنجة

المصدر: H.P. J. Renaud, La peste de 1799 d'après des documents inédits, Hespéris, Vol 1, 1921, p. 169.

- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، 1992، ص 89- 90.

ج- **طبيعته:** فيما يتعلق بطبيعة هذا الوباء، نجد المشرفي يقدم لنا وصفا مسهبا له بقوله: "وفي رأس هذا القرن حدث الطاعون، وهو خروج شيء في مغابن الإنسان كإبطيه يشبه الجوزة يسودّ ما حولها أو يحمرّ...، يقال له وباء الحبة، يمرض الإنسان (به) أياما عديدة، وربما يعيش ولمّا يطعن (به) الإنسان؛ فيتقيأ ما يشرب، ولا يكاد يصبر على الماء، ويقع له إسهال في البطن أنتن من الجيفة، وقل من مات به وهو يشعر أو يعقل، بل من حينه يسقط مغمورا، وظاهر جسده أبرد من الثلج، وهذه علامة الموت"[11]. وبذلك يتضح أن الأمر يتعلق بالطاعون الدملي (الذبيلي) الذي تتروح نسبة الوفاة به ما بين 65% و90%. أما جاكسون (J.G.Jackson) فيشير إلى أن أعراض هذا الوباء اختلفت حسب السن وبنية الجسم؛ فبالإضافة إلى أعراض الطاعون الدملي التي كانت تتجسد في التقيء وصعوبة التنفس، وكذلك الإصابة بآلام في الرأس مع ظهور التهابات ودماميل، نجده كذلك يتحدث عن أولئك المصابين برعشة أو هذيان الحمى، والذين لم تكن تظهر عليهم أورام أو دماميل أو أي تشويه خارجي؛ فكانوا يموتون في أقل من 24 ساعة، وكانت جثتهم تتعفن بسرعة، لذا كان من الضروري مواراتهم التراب ساعات قليلة بعد موتهم[12]، مما يدل على انتشار الطاعون الرئوي كذلك، والذي كانت تصل نسبة الوفاة به إلى 100%.

EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636 ردمد
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

د- أسباب الطاعون الكبير (1798- 1800م): لقد ظهر الطاعون الكبير والمغرب يعيش "ذروة أزمة لا مثيل لها في نهاية قرن تتالت فيه شتى ضروب المحن من حروب أهلية وقحوط ومجاعات..."[13]؛ فقد كان الجفاف شديدا، إذ يخبرنا الضعيف أنه في 5 رمضان 1213هـ/10 فبراير 1799م، تم تنظيم صلوات الاستسقاء بمراكش[14]، ولعل ما زاد في استفحال الأوضاع، اكتساح الجراد خلال سنوات متلاحقة[15]، مما أدى إلى ظهور بوادر أزمة غذائية مهّدت الأرضية لانتشار الطاعون الكبير الذي مات به عدد لا يحصى من الناس، حيث يشير ابن سودة في هذا الصدد إلى أنه: "بعدما انتهى بفاس ونواحيها؛ صار يقع بمكناسة الزيتون، ثم ببلاد مراكش إلى أن عمّ قطر المغرب كله"[16].

وإلى جانب هذه العوامل الطبيعية، نجد أن العنصر البشري ساهم بدوره في توسيع دائرة الوباء؛ حيث يذكر الفشتالي أنه: "في هذه السنة (1213هـ) تحرك مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل لأرض مراكش ومعه خلق كثير، ولم يكن لسفره دليل ولا موجب"[17]، ممّا أدى إلى تفشي الطاعون في السهول الساحلية والأقاليم الجنوبية؛ حيث يشير القنصل البريطاني بطنجة إلى أن "جيش السلطان قد نقل العدوى من فاس إلى الرباط، ثم إلى باقي السهول الأطلنتكية"[18]، وهو ما أكده الضعيف كذلك بقوله: "وارتحل السلطان من عين عتيق لناحية أسفي، وذلك يوم الخميس 29 من ذي القعدة عام 1213هـ، وبات بوادي بوزنيقة، وفي كلّ يوم يموت من جيش السلطان كذا وكذا بالوباء إلى أن قطع وادي أم الربيع، وكأنه نهض بجُنديْن: جند من العسكر وجند من الوباء، ولم يكن بدكالة وعبدة وأحمر وغيرهم حتى دخل جند السلطان ببلادهم..."[19]. ولا يستبعد أن تكون هذه الحركة قد ساهمت بشكل غير مباشر في تنشيط العدوى في الأقاليم الشمالية بعد عودة الجنود من مواطنهم.

مما يدل على الإنعكاسات الخطيرة التي ستكون لهذا الوباء الجارف على المستوى الديمغرافي.

2- **النتائج الديمغرافية لطاعون** 1798- 1800م: عرف المغرب نزيفا ديمغرافيا جراء الطاعون الكبير الذي داهمه في نهاية القرن 18م ومطلع القرن 19م، كما يتضح من خلال الروايات الأجنبية، التي وإن كانت تفتقر إلى الدقة المطلوبة بحكم التفاوت الكبير في الأرقام التي تقدّمها، إلا أنها تعكس على الأقل فداحة الخسائر البشرية التي خلفها؛ حيث نجد جاكسون (Jackson) يشير في هذا الصدد إلى حلول الطاعون بمدينة فاس: "حيث حصد

هذا البلاء غير المسبوق ضحية أو ضحيتين في اليوم الأول، ثم ثلاثة أو أربعة في اليوم الثاني؛ فستة أو ثمانية في اليوم الثالث، وتصاعدت وتيرته باستمرار حتى بلغ عدد الوفيات اثنين في المائة من مجموع السكان، وبقي على نفس الضراوة...، ثم بدأ في التراجع بكيفية منتظمة من ألف وفاة إلى تسعمائة ثم ثمانمائة وفاة، وهكذا حتى اختفى نهائيا، وإن أي لجوء للدواء والأطباء لم يكن له مفعول، حتى لم يعد أحد يأبه بهذا الطول، وأصبح السكان في حالة استسلام لهذه المحنة الأليمة، وفقدوا كل أمل في البقاء أحياء"[20]. كما يذهب الرحالة الانجليزي جيمس كورتيس (James Curtis) الذي زار مدينة فاس في عام 1801م إلى أن هذا الوباء فتك بحوالي 15.000 شخص في أحد أحياء المدينة، بحيث لم يبق فيه سوى 30 شخصا فقط، وكان من بين الضحايا آلاف الحرفيين والتجار والفقهاء[21]. وقد بلغ عددهم الإجمالي بفاس حوالي 65.000 ضحية[22]، وهو ما يؤكده الرحالة الإسباني علي باي العباسي، الذي ذهب بدوره إلى أن هذه المدينة فقدت نصف سكانها، حيث وصل عدد الضحايا بها إلى 60.000 ضحية[23]، مما يدل على وجود تقارب بين الرقمين، وإن كانا لا يخلوان من مغالاة، وفي نفس السياق يشير رينو (Raynaud) إلى أنه بعد رجوع السلطان مولاي سليمان من مراكش إلى مدينة فاس؛ فقد وجدها خالية من سكانها الذين ماتوا من جراء هذا الطاعون أو لاذوا بالفرار، مما يدل على جسامة الخسائر التي خلفها[24]، وبما أن عدد الوفيات كان كبيرا جدا بمدينة فاس؛ "فقد تعذّر على الأحياء من السكان دفن الضحايا؛ فقاموا بوضعهم أو إلقائهم في حُفر كبيرة حتى إذا امتلأت غطوهم بالتراب. كل مراسيم الدفن التي كان معمولا بها في السابق لم تعد لها قيمة، لم يعد هناك من يميز الأمور الدينية عن الدنيوية، وأصبح اليأس الشامل يعمّ الناس"[25].

كما تشير الروايات الأجنبية إلى أن الطاعون الكبير قضى على ثلثي ساكنة الرباط، التي وصل عدد الضحايا بها إلى 20.000 ضحية من مجموع 30.000 نسمة[26]. وحسب إحدى المراسلات القنصلية، فإنّه تفشى كذلك بمدينة سلا، مخلفا بها في بداية شهر يوليوز ما بين 140 إلى 150 ضحية في اليوم[27].

أما بعاصمة الجنوب مراكش؛ فقد كانت الخسائر فادحة، حيث يتحدث القنصل الفرنسي بروسوني (Broussonnet) عن موت 1800 ضحية يوميا[28]، مما أدى إلى فصول مأساوية؛ "حتى إن الجثث كانت تبقى في العراء؛ فتنهشها الكلاب والطيور الكاسرة، وأمام شبح الفناء، عمّ اليأس والاستسلام...؛ حيث عمد الأغنياء إلى إفراغ مطاميرهم، وتوزيع ما

تختزنه من حبوب على الفقراء، وتهيئتها بذلك لتكون مثواهم الأخير"[29]، وتبالغ الروايات الأجنبية في تقدير هذه الخسائر؛ حيث تشير إلى أن العدد الإجمالي للضحايا بلغ 50.000 ضحية من مجموع 60.000 نسمة[30].

كما ارتفع عدد الضحايا بمدينة أسفي حيث وصل إلى 5.000 ضحية، وفي مدينة الصويرة إلى 4.500 ضحية[31]، أما في قرية الديابات الواقعة على بعد ميلين جنوب شرق هذه الأخيرة؛ فقد فتك هذا الطاعون الجارف بحياة 100 فرد من مجموع 133 نسمة[32]. وفي نفس السياق يشير جاكسون (Jackson) إلى آثار هذا الوباء على منطقة حاحا بقوله: "حينما كنت أتنقل عبر هذه المنطقة مدة قصيرة بعد انتهاء الطاعون، رأيت أطلال كثير من القرى المقفرة، وقد سبق لي أن عهدتها قرى مزدهرة، وحين سألت عن أهالي هذه الأماكن الكئيبة، قيل لي إنه في إحدى القرى التي كانت تضم 600 نسمة، فقط 4 استطاعوا النجاة من هذه الكارثة. وفي قرى أخرى بلغت ساكنتها 400 أو 500، فقط 7 أو 8 بقوا أحياء ليحكوا عن المصائب التي عانوا منها"[33].

أما في منطقة سوس؛ فإن عدد المنكوبين كان أكبر حجما من كل المناطق، حيث بلغ عدد الضحايا في تارودانت 800 ضحية في اليوم، كما أن حامية عسكرية حلّت بهذه المدينة لم يَنْجُ منها سوى جنديين من مجموع 1200 جندي[34]، بل نجد أنّ هذا الطاعون أدى إلى إفراغ قرى بكاملها، مما دفع بالعديد من القبائل العربية مباشرة بعد إقلاعه، إلى الهجرة من مواطنها الأصلية في أعماق الصحراء، والاستقرار في البلاد المحاذية لوادي درعة وبمناطق كثيرة في سوس[35].

أما الجزء الشمالي من البلاد؛ فلم يتأثر بكيفية خطيرة إلا في ربيع سنة 1800م، حيث وصل عدد الضحايا في القصر الكبير إلى 10.000 ضحية من أصل 20.000[36]. وفي طنجة، حيث كان عدد السكان أقل بكثير؛ فلم يتجاوز عدد الضحايا 30 ضحية في اليوم[37].

مبيان رقم (1): عدد ضحايا الطاعون الكبير (1798- 1800م) ببعض المدن المغربية

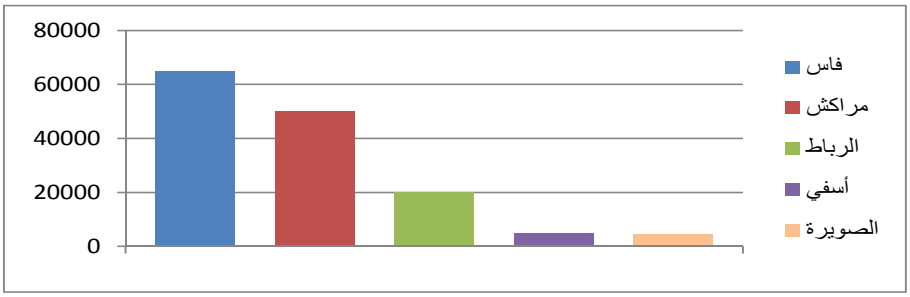

H.P.J. Renaud, La peste de 1799 d'après des documents inédits, Hespéris, Vol 1, 1921, p. 169-171/Lucien Raynaud, Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc, Suivie d'une notice sur la climatologie des principales villes de l'empire, Alger, 1902, p. 81/James Grey Jackson, An Account of the empire of Morocco and the districts of Suse and Tafilelt, Third Edition, 1868, p. 174.

كما أن المصادر المغربية أولت بدورها اهتماما كبيرا لهذا الطاعون الجارف الذي "أخلى البلاد من العباد"[38] على حدّ تعبير الفقيه السوسي محمد المانوزي، حيث يشير الضعيف إلى أنه: "كثر الوباء بفاس البالي، وفي تلك النواحي حتى مات من الخلق ما لا يحصي عددهم إلا الله تعالى...، وخليت المدارس، ومات الجلّ من فقهاء مكناس وفاس وغيرهم"[39]، أما بخصوص الوضعية في السهول الأطلنتكية فيذهب إلى أن السلطان مولاي سليمان قصد دكالة: "فوجد عاملها قد مات وهو الحاج الهاشمي العروسي الدكالي، ومات ولده الطاهر وأخوه محمد بخدمه وعياله ونسائه، وبقيت داره خالية"[40]. بينما يخبرنا صاحب الابتسام بأن هذا الطاعون الكبير: "عمّ البوادي والأمصار، وخلت بسببه الخيام والديار، فبلغنا أنه كان يموت بفاس في كل يوم الألفان ونصف..."[41]، ويضيف أنه: "كان موتا ذريعا كاد أن يفضي إلى الفناء، وعمّ جميع أقاليم المغرب"[42]. وفي نفس السياق، يذكر الفشتالي أن هذا الطاعون بفاس: "ازداد أمره بأول شوال، حتى صاروا يدفنون ما يزيد على ألف كل يوم. وكسدت الصنايع والحرف وضاق المعاش إلى أن كان الناس الجلّ منهم يحمل الموتى ويحفر"[43]. أما بخصوص تطوان فيقول محمد أفيلال: "كان يموت في بلدتنا تطوان كل يوم مائة وثلاثون يزيد بعشرة أو ينقص بنحوها، وبقي في هذه العدة نحوا من شهرين أو أكثر، وبلغ يوما واحدا مائة وخمسين"[44]، ليصل عدد الضحايا بهذه المدينة خلال شهرين إلى ما لا يقل عن 8000 ضحية[45]. هذا بالإضافة إلى حديث المختار السوسي عن وفاة العديد من رجال وعلماء سوس جراء هذا الوباء الجارف، الذي أدى إلى انقراض أسر بكاملها[46].

وبالتالي فإنّ الروايات المغربية تتفق مع الروايات الأجنبية في الدلالة على فداحة الخسائر البشرية التي خلفها طاعون 1798- 1800م، والذي تميز بقوته التدميرية، إلى حد أن الكثير من المدن والبوادي المغربية خلت من سكانها، مما كان له أسوأ الأثر على مختلف الميادين.

على أن الفئات الأكثر تضررا من جراء هذا الطاعون الجارف هي الفئات الفتية، بالإضافة إلى ارتفاع عدد الضحايا في صفوف الإناث، وهو ما يؤكده جاكسون (Jackson) الذي يذهب إلى أنه: "ضرب أول من ضرب الشباب، وبعدهم النساء والأطفال، وفي المرتبة الأخيرة الناس الهزل والمستنزفين وكبار السن"[47]، بل نجد أن بعض الروايات الأجنبية تذهب إلى أن هذا الطاعون الكبير أباد نصف أو ثلث السكان بالمغرب[48]، مما يدل على فداحة الخسائر البشرية التي خلفها، وإن كانت هذه الأرقام المقدمة لا تخلو من مبالغة وتناقض، نظرا لعدم وجود دليل على مدى صحتها؛ فتبقى بذلك مجرد مقاربات إحصائية محدودة الأهمية من الناحية العلمية.

كما أن هذا الوباء كانت له انعكاسات على التركيبة الاجتماعية للسكان، من خلال خلق الفرص أمام الأحياء للإثراء السريع، وهو ما عبّر عنه جاكسون بقوله: "لقد حدث تغيير عام في توزيع الثروات وفي أوضاع وظروف الناس، إذ رأينا أنّ أفرادا كانوا قبل الطاعون مجرد عمال بسطاء، أصبحوا الآن يملكون ثروات هائلة، ويربون خيولا ليسوا متمرنين على امتطاء صهواتها...، كما ارتفعت تكاليف العمل بشكل كبير، ولم تكن هناك مساواة بين بني البشر بمثل هذا الوضوح الذي أصبح عليه الحال بعد الطاعون...؛ حيث اضطر الأغنياء إلى قضاء أوطارهم بالاعتماد على النفس"[49].

لقد أدى هذا الوباء الجارف إلى نقص كبير في اليد العاملة، وهي حقيقة جسدها الفشتالي بقوله: "وفيه (عام 1799م) كان الغيث الكثير، وجاءت صابة لاكن (كذا).. لا يقدر الأحياء على خدمتها لقلتهم اليوم"[50]، مما أدى إلى تدهور الفلاحة بالمناطق السهلية، وفسح المجال أمام القبائل الرعوية القادمة من المناطق الجبلية والصحراوية للاستقرار بها، حيث أصبحت تلعب دور الخزان البشري لتعويض الركود الديمغرافي في السهول، وهو ما يؤكده جاكسون بقوله: "بعد تراجع عدد السكان وخلو الأراضي من ملاكيها، هاجرت الكثير من القبائل العربية من أماكنهم في أعماق الصحراء، واستولوا على البلاد المحاذية لوادي درعة ومناطق كثيرة في سوس"[51].

كما تمكن السلطان مولاي سليمان من الحصول على ثروة هائلة بعد الاستيلاء على أموال وأملاك المنقطعين في هذا الوباء؛ ففي سوس وحدها كان متخلف الهالكين هاما لدرجة عجز موظفو المخزن عن جمعه، حيث يذكر الزياني أن السلطان وجّه "أحد كتّابه للسوس، وهو السيد محمد الرهوني لجمع أموال المنقطعين؛ فجمع منها ما قدر عليه ورجع"[52]، مما ساهم في تقوية دعائم الدولة المغربية.

ولقد شمل الطاعون الكبير مختلف الفئات الاجتماعية الغنية والفقيرة؛ فكان الضحايا في أوساط العامة كما في أوساط الخاصة، إذ توفي إخوة السلطان مولاي سليمان الثائرين عليه، وعدد من العمال وقواد القبائل المناوئين له، حيث يذهب المؤرخ محمد الكنسوسي إلى أنه بعد رجوع السلطان من مراكش إلى مكناس، "بلغه موت إخوته الأربعة بالوباء، مولاي الطيب ومولانا هشام ومولانا الحسين ومولاي عبد الرحمان، الثلاثة الأوائل بمراكش والرابع بسوس، وانقطع الوباء...، وظهر في الدنيا سرور، وفاضت الخيرات بمتخلف الأموات، وذلك مصداق البركة في بقية الجوائح، وكذلك لا تكرهوا الفتن فإنها حصاد المنافقين، ولما مات العتاة والظلمة ومشاهيب البلاء وشياطين القبائل، تمهدت المملكة لمولانا سليمان؛ فلم يبق له معارض ولا منازع"[53]، وهو ما أكده كذلك القنصل الإنجليزي ماطرا (Matra) الذي ذهب إلى أن "مولاي سليمان يتحكم الآن في البلاد بشكل مطلق؛ فأصبح من المستحيل على الأقاليم الساحلية التي فقدت ساكنتها أن تقوم بأي تمرد أو حركة عصيان"[54]، مما ساهم في توطيد الحكم المركزي، وأدى إلى سيادة الأمن والاستقرار بالبلاد.

لكن بالمقابل أدى طاعون 1798- 1800م إلى هلاك العديد من الشخصيات المغربية البارزة، لعلّ أبرزها الوزير محمد بن عثمان المكناسي الذي ترك فراغا سياسيا كبيرا استغلته الدول الأوروبية لقضاء مآربها، باعتبار أنه كان له تضلع كبير في أمور السياسة الخارجية، كما يتضح من خلال شهادة طوماسي (Thomassy) التي جاء فيها: "ولكن أعظم ضياع بالنسبة إلينا وبالنسبة لمولاي سليمان هو ما منينا به موت وزيره الأول ابن عثمان، ذلك السياسي الداهية الذي كان له استعداد للتفاهم قليلا ما نراه عند المسلمين"[55]. هذا بالإضافة إلى وفاة العديد من كبار العلماء والفقهاء جراء هذا الوباء الجارف[56]؛ حيث يشير الضعيف إلى أنه: "خليت المدارس، ومات الجلّ من فقهاء مكناس وفاس وغيرهم"[57]،

ويوافقه الفشتالي بالقول: "ومات خلق كثير من طلبة فاس وعلمائها وأشرافها ووجوهها وأعيانها"[58]، مما ساهم في زعزعة أركان المجتمع المغربي، وخلخلة توازنه الديمغرافي.

خاتمة: يعد الطاعون الكبير (1798- 1800م) من أشدّ وأخطر الأوبئة التي عرفها المغرب خلال نهاية القرن 18م ومطلع القرن 19م، ساهمت عدة عوامل طبيعية وبشرية في انتشاره على نطاق واسع؛ فكان الوباء الأكثر فتكا بالمغاربة؛ حيث تسبب في انهيار ديمغرافي كبير، وكانت له عواقب وخيمة على مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لكن رغم جسامة الخسائر الديمغرافية التي خلفها؛ فإنّ المغرب استطاع تعويضها، نظرا للإرتفاع الهام في نسبة الولادات، والإزدهار الفلاحي الذي عرفه خلال العقد الأول من القرن 19م، ناهيك عن غياب الأوبئة والمجاعات خلال هذه الفترة، مما ساهم في نمو سريع للسكان.

الهوامش:

1- أبو القاسم الزياني، الروضة السليمانية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم د1275، ص 181.

2- أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ج8، ص 106.

3- إدريس الجعيدي، الابتسام عن دولة ابن هشام، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 12490، ص 6.

4- أبو عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي، الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، تقديم وتحقيق وتعليق أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، د.ت، ج1ص281.----5- محمد بن عبد السلام الضعيف، تاريخ الضعيف(تاريخ الدولة السعيدة)، تحقيق وتقديم أحمد العماري، ط.1، دار المأثورات، الرباط، 1986، ص.314

6- عبد السلام بن سليمان الفشتالي، تقييد في وباء 1213هـ، في مجموع مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم د283، ص 126.

7- Lucien Raynaud, Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc, Suivie d'une notice sur la climatologie des principales villes de l'empire, Alger, 1902, p. 80.----8- R. Thomassy, Le Maroc : Relations de la France avec cet empire, 3ème édition, Librairie de Charles Douniol, Paris, 1859, p. 365.----9- Léon Godard, Description et histoire du Maroc, Ch. Tanera, Paris, 1860, T : 2, p. 573.----10- H.P.J. Renaud, La peste de 1799 d'après des documents inédits, Hespéris, Vol 1, 1921, p. 169.

11- العربي المشرفي، أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 2013، ص.9.

12- James Grey Jackson, An Account of the empire of Morocco and the districts of Suse and Tafilelt, Third Edition, 1868, p. 176- 177.----13- Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, CNRS, Paris et CURS et INAV, Rabat, 1983, T 1, p. 195.

14- محمد الضعيف، تاريخ الضعيف، م.س، ص 314.

15- James Grey Jackson, An Account of the empire of Morocco, op;cit, p. 171.

16- عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع (1171- 1400هـ/ 1756- 1980م)، تنسيق وتحقيق محمد حجي، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ج1، ص89. ----17- عبد السلام الفشتالي، تقييد في وباء 1213هـ، م.س، ص 126.

18- محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار: المجتمع والدولة والدين (1792- 1822م)، ترجمة محمد حبيدة، ط.1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2006، ص 171/محمد الأمين البزاز، "الحركة والطاعون في مغرب القرن الثامن عشر

وبداية القرن التاسع عشر"، ضمن أعمال ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 4، من تنظيم جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2002م، ص 351.----19- محمد الضعيف، تاريخ الضعيف، م.س، ص 315، ويذكر الضعيف أن السلطان مولاي سليمان قام بهذه الحركة لإخضاع قائد عبدة وأسفي عبد الرحمن بن ناصر.

20- James Grey Jackson, An Account of the empire of Morocco, op;cit, p. 172.

21- محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، م.س، ص 174.

22- Lucien Raynaud, Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc, op;cit, p. 81/ James Grey Jackson, An Account of the empire of Morocco, op;cit, p. 174.----23- Domingo Badia Ali Bey, Viajes par Marruecos, Tripoli Grecia y Egipto, Prologo de Juan Goytisolo, José J. Olañeta, Barcelona, 1982, p. 201.----24- Lucien Raynaud, Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc, op;cit, p. 81.----25- James Grey Jackson, An Account of the empire of Morocco, op;cit, p. 174.

26- Lucien Raynaud, Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc, op;cit, p. 81/Léon Godard, Description et histoire du Maroc, op;cit, T : 2, p. 574.

27- H.P.J. Renaud, La peste de 1799 d'après des documents inédits, op;cit, p. 170.N : 1.

28- Ibid, p. 170. N :2/Lucien Raynaud, Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc, op;cit, p. 81/Léon Godard, Description et histoire du Maroc, op;cit, T : 2, p. 574/Jacques Caillé, Le vice-consul Broussonet et ses « mémoires » sur le Maroc, Hespéris-Tamuda, Vol II – Fasc 1, 1961, p. 16.

29- Ibid, p. 170/James Grey Jackson, An Account of the empire of Morocco, op;cit, p. 174/Jacques Caillé, Le vice-consul Broussonet et ses « mémoires » sur le Maroc, op;cit, p. 16.

30- Ibid, p. 170/James Grey Jackson, An Account of the empire of Morocco, op;cit, p. 174/Lucien Raynaud, Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc, op;cit, p. 81.

31- Ibid.

32- James Grey Jackson, An Account of the empire of Morocco, op;cit, p. 172- 173.

33- Ibid, p. 173.

34- Ibid, p. 174/H.P.J. Renaud, La peste de 1799 d'après des documents inédits, op;cit, p. 171.

35- James Grey Jackson, An Account of the empire of Morocco, op;cit, p. 175-176.

36- محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، م.س، ص 173، الهامش 104.----37- نفسه، ص 172. ----38- محمد المختار السوسي، كتاب المعسول، مطبعة الجامعة، الدار البيضاء، 1961، ج 3، ص 251. ----39- محمد الضعيف، تاريخ الضعيف، م.س، ص 314- 315. ----40- نفسه، ص 315. ----41- إدريس الجعيدي، الابتسام عن دولة ابن هشام، م.س، ص6. ----42- نفسه، ص 15. ----43- عبد السلام الفشتالي، تقييد في وباء 1213هـ،م.س، ص 126.

44- محمد داود، تاريخ تطوان، مكتبة الناصر، تطوان، القسم الثاني من المجلد 3، ص 234. ----45- نفسه.

46- محمد المختار السوسي، كتاب المعسول، م.س، ج 3، ص 20- 28- 117- 118- 165- 214- 250- 251. و ج 4، ص 22. وج 5، ص 141. وج 11، ص 120. وج 14، ص 28- 165. وج 16، ص 71- 235- 236. وج 17، ص 6- 7- 11- 13- 16- 17- 19- 78- 102- 197.

47- James Grey Jackson, An Account of the empire of Morocco, op;cit, p. 174.----48- Ibid, p. 171.

- بينما يذهب محمد المنصور إلى أنه هلك ما بين الربع والنصف من مجموع السكان إبّان هذا الوباء. انظر محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، م.س، ص 175.

49- Ibid, p. 174 - 175.

50- عبد السلام الفشتالي، تقييد في وباء 1213هـ، م.س، ص 126.

51- James Grey Jackson, An Account of the empire of Morocco, op;cit, p. 175-176.

52- أبو القاسم الزياني، الروضة السليمانية، م.س، ص181.----53- أبو عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي، الجيش العرمرم الخماسي، م.س، ج1، ص281. ----54- محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، م.س، ص174/محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، 1992م، ص 131.

55- R. Thomassy, Le Maroc : Relations de la France avec cet empire, op;cit, p. 365.

56- محمد الضعيف، تاريخ الضعيف، م.س، ص 315- 317. ----57- نفسه، ص315.

58- عبد السلام الفشتالي، تقييد في وباء 1213هـ، م.س، ص126.